البناء
السنة السابعة / السبت / 3 تشرين الأول 2015 / العدد 1898
Seventh year / Saturday / 3 October 2015 / Issue No. 1898

الجيش السوري يقاتل المعارضة أم الإرهاب؟

■ حميدي العبدالله

مَن يقاتل الجيش السوري، هل يقاتل المعارضة أم يقاتل الإرهاب؟

الإجابة على هذا التساؤل تحدّده الوقائع غير القابلة للدحض أو التشكيك، ومن بين هذه الوقائع:

أولاً، هيئة التنسيق الوطني المعارضة، تعلن صراحةً، ليلاً نهاراً، وعلى لسان كلّ مسؤوليها أنها لا تحمل السلاح وأنّ مؤيديها لا يشاركون في القتال، لا إلى جانب المعارضة ولا إلى جانب الجيش السوري، وهذا يعني أنّ الجيش السوري لا يقاتل عناصر تابعة لها.

ثانياً، في محافظة إدلب، لم يعد هناك وجود لأيّ تشكيل مسلح لا يتبع لتنظيم «القاعدة» بفروعه المختلفة، (جبهة النصرة، الجيش التركستاني، جيش المجاهدين، أحرار الشام... إلخ) والتي تنضوي جميعها تحت لواء «جيش الفتح».

في جبهة حلب لا وجود سوى للجبهة الشامية، وهي تضمّ تشكيلات إسلامية، تشكل «جبهة النصرة» و«أحرار الشام» عمودها الفقري، وهذه جميعها تنظيمات مصنّفة دولياً بأنها إرهابية ومتطرفة.

ثالثاً، في المحافظات الشرقية، وهي الرقة والحسكة ودير الزور، الوجود الحصري للذين يقاتلون الجيش السوري ووحدات الحماية الكردية هو تنظيم «داعش» المصنّف تنظيماً إرهابياً من قبل دول العالم كافة.

رابعاً، في درعا والقنيطرة وريف دمشق، التشكيلات المسلحة التي تضطلع بالدور الرئيس في محاربة الجيش السوري، هي «جبهة النصرة» و«داعش» وتنظيمات «القاعدة» الأخرى مثل «لواء اليرموك» و«حركة المثنى» وهما تابعان لـ«داعش» و«النصرة»، أما ما يُعرَف بـ«الجيش الحر»، فلم يعد له أي وجود في أيّ جبهة من الجبهات، وعادةً ما تتمّ تصفية عناصره من قبل «النصرة» و«داعش» في حال حاولوا إظهار وجودهم وتحرّكهم المستقل.

أما التشكيلات المسلحة من «المعارضة المعتدلة» التي سعت وتسعى واشنطن إلى بنائها وتمّ رصد الملايين لها، فإنه لم يسجل أيّ وجود لها في أيّ مكان في سورية، ولعل أبلغ مثال هو ما حل بالمجموعات التي تخرّجت من معسكرات التدريب الأميركية في تركيا، وتحديداً ما عُرف بـ«الفرقة 30» التي تمّ إلقاء القبض عليها من قبل «جبهة النصرة» حتى قبل أن تصل إلى جبهات القتال، وقام المتخرّجون من الفوج الثاني بتسليم أسلحتهم إلى تنظيم «القاعدة»، وهو ما اعترف به مسؤولون أميركيون.

في ضوء هذه الوقائع الواضحة والصلبة، فإنّ القتال في سورية اليوم يدور حصراً بين الجيش السوري، وبين التنظيمات الإرهابية بتشكيلاتها المختلفة وتسمياتها المتعدّدة، ويؤكد ذلك حقيقة سياسية واقعية لا دعائية، أنّ الجيش السوري يحارب الإرهاب ولا يحارب المعارضة.

روسيا تتحدّى.. فهل يصمد الأميركيون؟

لم تشأ روسيا الدخول في المرحلة السابقة في أيّ تحالف دولي من شأنه مكافحة الإرهاب، فهي لم تكن مقتنعة لا بالخيار ولا بالقرار ولا بالمشاركين في هذا التحالف. ثبت فشل التحالف الدولي في إحراز تقدّم والخروج من انحيازه والتسليم بعجزه، وثبتت صحة الخيار الروسي بعدم الانضمام إليه، فهذا الحلف الذي لا تنقصه قدرات القتال تنقصه صحة القرار وإرادة تغيير الواقع في سورية، والقدرة ظهرت في نجاح التحالف الدولي في إبعاد مخاطر «داعش» عن كوباني كمثال وقدرته على إحداث خروق عسكرية.

أتت روسيا لتقول اليوم إنها تحمل قراراً جدياً بالتغيير على الأراضي السورية، هذا القرار الذي افتقدته الولايات المتحدة الأميركية، أو عجزت عن التوصل إلى إجماع حوله، لكن روسيا قدمت الى سورية بعد أمر أساسي وهو إقناع الأميركيين بضرورة الحلّ السياسي على الارض. وقد نجح الروس في ذلك، هكذا قال بوغدانوف امام احد زواره العرب، وبعد نجاح روسيا بإقناع أميركا بأنّ الحلّ السياسي المنشود لا يمكن ان يكون من دون الرئيس بشار الأسد. وبعدما شعرت روسيا أنها أكثر ارتياحاً لوضعها وقدراتها قرّرت رفع القرار أمام العالم.

مكافحة الإرهاب ليست خياراً روسياً من بين خيارات عدة، فروسيا التي رأت في الأزمة السورية جرحاً نازفاً لا يستطيع التعافي لكنه لا يتدهور لتسوء حاله، وجدت أنّ في الإسراع بتعافيه إبعاداً لمخاطر الإرهاب الذي يتهدّدها والذي عانت وتعاني مما يسبّبه من بؤر وخلايا تنتشر في البلاد وقد تدخل أوروبا من الباب العريض، وبالتالي فإنّ القتال في سورية بالنسبة اليها ليس إنقاذ نظام انما استراتيجية وقرار.

أثبتت روسيا أنّ أحادية التحكم بالعالم قد انتهت، وها هي اليوم تقسّم أوروبا والعالم بين مواقف مؤيدة لقرارها العسكري في سورية، وبين رافضة، وتثبت أن هذه الأحادية سقطت فعلاً لا قولاً، وانّ هناك من هو غير قادر بعد على مجاراة القرارات الأميركية على حسابه، وبالتالي تدرك واشنطن انها تتفرّج اليوم على تحركات موسكو من دون القدرة على حشد مواقف أولاً ولا قدرة على التغيير ثانياً، وبالتالي وطالما انّ الاميركيين لم يثبتوا أنهم يريدون الإسراع في الحل السياسي في سورية، فإنّ الروس غير مستعدين أكثر لإطالة عمر الأزمة التي تهدّد أمنهم القومي بالمدى المنظور.

روسيا التي تحركت اليوم تدخل رسمياً بوابة استعادة القطب الحاكم في العالم، فأعادت سياسة ثنائية الأقطاب التي فقدتها، وفي المحصلة يمكن فرز العالم اليوم بين دول مؤيدة لروسيا ودول مؤيدة لأميركا، وبالتالي فإنّ الزمن تغير والسياسات تتغيّر والوزن الأميركي في المنطقة يتغيّر.

روسيا تتحدّى.. لكنها أمام استحقاق أكبر من الرهان على وضعها كندّ لندّ أمام الاميركيين، وهو قدرتها في إثبات جديتها بأسرع وقت ممكن وقدرتها على إحداث فرق يعتدّ به امام العالم الذي ستقدّم نفسها أمامه كدولة أولى تقود مكافحة الإرهاب عالمياً، لأن من ينجح في سورية يستحق أعلى اوسمة الشرف العسكرية لمكافحة التطرف الذي يهدّد العالم...

روسيا تسحب صفة المخلّص من الأميركي الذي ادّعى أخذ مكافحة الارهاب على عاتقه منذ دخل العراق وافغانستان، وها هي اليوم تباشر عمليات لن تقتصر على سورية فقط انما على العراق كما تشير بعض الأجواء، لعلمها بترابط الأزمة كامتداد وهدف.

روسيا تتحدّى فهل يصمد الأميركيون طويلاً؟ أم سيبدأ تبلور المشهد السياسي في سورية أسرع بكثير مما كان متوقعاً؟

«توب نيوز»

سحب الباتريوت من تركيا

– تركيا عضو قديم في حلف الأطلسي ولم يلحظ الحلف نشر صواريخ باتريوت على أراضيها.

– في حرب العراق لم يُنشر الباتريوت.

– في ذروة التصعيد ضدّ إيران نشرت واشنطن درعاً صاروخية في أوروبا بذريعة خطر إيران الصاروخي ولم تنشر الباتريوت في تركيا.

– قبل عامين قرّرت واشنطن وتبعتها ألمانيا نشر صواريخ باتريوت في تركيا على حدودها مع سورية استعداداً لإقامة منطقة عازلة تمنح بحماية الأطلسي للجماعات المسلحة.

– جاءت الأساطيل الأميركية ورحلت وبقي حلم أردوغان بالمنطقة العازلة كرأس جسر للسلطنة الموهومة.

– تمّ التفاهم النووي الإيراني ولم يقرّر سحب الباتريوت.

– خسر أردوغان الانتخابات وراهن على ربحها بقوة المنطقة العازلة.

– حسبتها واشنطن وألمانيا قبلها والكلفة تورّط بحرب مع سورية، فقررت ألمانيا الرفض وتبعتها أوروبا وأميركا، ولما أصرّ أردوغان قرّرت ألمانيا سحب الباتريوت وحدّدت نهاية هذا الشهر موعداً.

– أعلنت واشنطن سحب الباتريوت بنهاية الشهر والرسالة لأردوغان واضحة عشية الانتخابات.

– جاء الطيران الروسي والصواريخ الروسية، ويتحدّث الأميركيون عن خطوط حمر، واليوم تعلن واشنطن سحب الباتريوت نهاية الشهر.

– فليفهم أردوغان والسعودية.

التعليق السياسي

المايسترو الأميركي و... الجوقة!

■ محمد ح. الحاج

تجري الحياة البشرية ضمن مسالك وتجارب مختلفة، وقد يمكن القياس على بعضها بمنتهى البساطة، ففي الحياة الاجتماعية نجد مجموعات متجانسة تؤدّي دوراً ما، في الموسيقى، في الرقص، في الرياضة وفي مختلف الفنون والأعمال، وكل مجموعة من هؤلاء على رأسها شبه سلطة، يمكن أن نقول إنه القائد أو المدرّب، وفي الموسيقى والغناء هو المايسترو، كذلك في عالم السياسة... هو المايسترو.

في الغرب، يمثل الناتو أكبر التجمعات السياسية والعسكرية، المايسترو هو أميركا، وكان المايسترو في عالم القطب الآخر هو الروسي الذي اعتكف أو جرى تهميشه أواخر القرن الماضي، هو في الطريق الآن لاستعادة هذا الدور بعد استبدال وارسو بتجمع بريكس ومنظمة شنغهاي، هذا واقع لا يمكن تجاهله، شاء الغرب أم لم يشأ، عصا المايسترو الروسي بدأت تتحرك.

في أزمة «الخريف العربي الذي جاء عاصفاً» كانت عصا المايسترو الأميركي هي الفاعلة، وكانت الإشارة أو الكلمة التي تصدر عن هذا المايسترو هي دليل عمل الآخرين، ولم يقتصر الأمر على أعضاء الفريق، بل كانت على الهامش أدوات وتنظيمات ضمن سلسلة الأتباع أغلبهم مرتزقة رغم كونهم يحملون صفة دولة أو حكومة، وهكذا، سقطت قلاع وملوك وفيلة والكثير من البيادق على رقعة المنطقة... بوضوح أكثر، كان المايسترو يتجاهل واحداً من الكورال... فيسقط... زين العابدين، مبارك، القذافي... أما باقي الجوقة فكانوا يردّدون كلمات المايسترو وإنْ استبدلوا بعض حروفها... الطاغية يصبح رحيماً... إنسانياً، ديمقراطياً... الخ المعزوفة، والمتحضر، الإنساني يصبح طاغية، ديكتاتوري، الأمر مناسب تماماً للمايسترو ومصالحه.

في بداياته لاستهداف الشام قرّر المايسترو «أنّ الرئيس الأسد فقد شرعيته، وأن لا دور له في مستقبل سورية»، لم يكن المايسترو بحاجة إلى وكالة من الشعب السوري، فهو يقرر، وعلى منواله جرت أحاديث الفرقة وباقي الجوقة، الفرنسي، البريطاني... وكأنّ صك الانتداب ما زال ساري المفعول، ولحق بهم باقي أعضاء الناتو ضمن سلوك ببغاوي مكشوف، الأسوأ كان موقف الأدوات والأتباع في عالمنا العربي ولكن، لأسبابهم الخاصة المنطلقة من قاعدة الأخذ بالثأر، طالت التجربة سنوات وأدرك المايسترو أنّ خيوط اللعبة الدولية لا تكتمل بأصابعه المحدودة الطاقة، فأقرّ تحت ضغط المتغيّرات وحالات الفشل أنّ أيّ حلّ لمشاكل المنطقة وخصوصاً في سورية لا يكون إلا سياسياً، وفي الشام بمشاركة واستمرارية الرئيس الأسد وإنْ جرى تغليف التراجع بالحديث عن «مرحلة انتقالية»، هكذا بدأ صدى موقف المايسترو يتردّد على ألسنة الجوقة بتردّدات متشابهة، أصوات عالية، وأصوات ضعيفة، خصوصية المصالح لا شك تنعكس وخاصة الفرنسي والتركي، النشاز وحده الأعرابي، لكن بموافقة ضمنية من المايسترو الأميركي، وهذا له أبعاد ودلالات تخدم مشروعه المستقبلي بالتأكيد.

رسالة المايسترو الأميركي إلى العالم والمراقبين واضحة... الطرف المتشدّد هو العربي، وهذا الطرف لا يستطيع مسايرة الواقع لأنه مدفوع بالغريزة وليس بفهمٍ واستيعابٍ المتغيّرات، وقد يقول إنه المعني أكثر بواقع الداخل السوري عربياً واسلامياً... بينما هو في الحقيقة العارية الأكثر بعداً عن الواقعية أو إدراك المصالح الفعلية للشعب السوري الذي دمّر هذا التدخل الأعرابي الفظ مصالحه وبناء التحتية وتركيبته الاجتماعية النادرة، التي شكلت عبر زمن طويل المثال والقدوة، وهو من بعَث الحضارة بتنوّعها وتشكيلاتها ومعتقداتها عبر العصور، موقف يبعث الفرح في قلب المايسترو، ويعطي صورة للآخر تجسّد براءته وكأنه ينطلق من موقف الإخلاص لحليفه وإنْ كان دكتاتورياً أو مجرد من الإنسانية، بل، من العقل والمنطق حتى، الطرف العربي هو متمرّد نشاز على حركة المايسترو، لكن برضاه وقبوله.

لا عجب أبداً أنّ مايسترو القطب الآخر يتصدّى لقيادة فرقة أكثر تجانساً ووضوحاً ويفرض إيقاعه، يقصّ الخشبة تحت أرجل المايسترو الأميركي ليسقط – تتجلى هنا لعبة توم وجيري – وهي إنتاج هوليودي يمكن القياس عليه... هي لعبة متكاملة إذا أدركها الأخير، تبدأ المساومة، تتغيّر الحركة فتأتي الإشارات مضطربة، ليعلن عدم مسؤوليته عن النشاز، لعبة يرفضها المايسترو الآخر ويدعو إلى إعادة تشكيل الفرقة واستبعاد النشاز أو مشاركته بشكل ثانوي على قاعدة قبول الشروط الجديدة، للعبة جديدة تحمل معها نهايات سعيدة لمكافحة إرهاب دولي... لوقف مسرحية مكافحة كاذبة لوهم تمّ إعداده وإطلاقه بعد زراعته في هياكل خشبية أشبه بأحصنة طروادة... المكافحة ضمن شروط الأميركي تكاذب واضح، صراع طواحين الهواء نهاراً، وإمدادها بالماء والهواء ليلاً لضمان استمرار اللعبة... يرفع المايسترو الجديد يده ملوّحاً بعصا غليظة ليست بنعومة عصا المايسترو الحقيقي، هي أقرب إلى عصا ترويض حيوانات السيرك... لا تنتظروا الرحمة...!

من يخالجه الشك باستمرارية وجوده يكون الأكثر عنفاً وقسوة، هكذا سلك الصهيوني منذ لحظة بداية إعلان هذا الوجود، السعودي أيضاً يمارس نفس الدور أو يقلده في اليمن، قبل ذلك في العراق والشام... الملك فيصل قال في رسالته للرئيس جونسون أواخر عام 1966 ما معناه: إن لم تقفوا معنا وتضربوا عدونا المشترك مصر فإنّ مملكتنا لن تبقى قائمة بعد العام 1970... نأمل أن تدفعوا «إسرائيل» لضرب الجيش المصري واحتلال سيناء حتى لا يرفع جندي مصري رأسه شرق قناة السويس، وأن لا يتم استثناء سورية حتى لا تسدّ الفراغ، كما طالب بدعم البرزاني حتى لا يتمدّد العروبي من العراق جنوباً...!

كيف يمكن نسيان ذلك... ألا يضربون اليوم في كلّ المحيط لتبقى مملكة آل سعود على أشلاء العرب وهي الضامنة «لليهود المساكين».

كلمات القادة على منبر الأمم المتحدة، المتنافرة بطبيعتها تعطي صورة واضحة لعملية خلط شاملة للأوراق، وتظهر التخبّط في أوساط الداخل الغربي بشكل أكثر نفوراً، كما تظهر هشاشة الموقف الأعرابي وسطحيته وضحالته، متى يتعلم الأعراب دروس السياسة والاتعاظ من الواقع... وهل يبيح لهم الوهم الاستمرار في ركوب أمواج المكيدة والتآمر واللعب على أوتار الدين والمذهب...؟ وهل هي ذات المؤشرات على اقتراب النهاية؟ وكم سقط قبلهم من أتباع وأدوات؟ يمكن للمايسترو الأميركي ادخال وجوه جديدة واستبدال المترهّلين، لكنه لن يأتي بوجوه أفضل، فقط هو يتلاءم مع معطيات الواقع وحركة التاريخ والأزمنة، وموازين القوة... وهذه لا يمكن أن تستقرّ على حال.

دفع السوريون أثماناً غالية للحفاظ على حريتهم واستقلالية قرارهم، وحدهم من يقرّر... هكذا يقول بوتين... المايسترو الذي بدأ نجمه في السطوع مع فريقه المتجانس... لن تكون هزيمة للإرهاب من دون الأسد... والجيش السوري، وإذا كان الوجود الروسي على الأرض السورية هو الضمانة فمرحباً به، كذلك الوجود الإيراني، وهما بطبيعة الحال لم يكونا ولن يشكلا احتلالاً، على الأقلّ بعد تجربة امتدّت لعقود، أما إنْ حصل، فوعد السوريين أنهم لن يتوقفوا عن الصراع للحفاظ على ذاتهم وحريتهم المقدسة.

هامش: يؤكد الرئيس المصري حرصه الحفاظ على وحدة الأرض السورية ومؤسسات الدولة وتضامنه مع القيادة السورية لمكافحة الارهاب...! أيها الرئيس: يمكنك الحديث وأنت متكئ وبراحة تامة، لكن تصرف وأنت جالس مستقيم... أوقف الشراكة في العدوان على اليمن والتحق بالحلف الذي يحارب الإرهاب حقاً، فشعبك مستهدف... أنت تتحالف مع نظام أنشأ ورعى وموّل وما زال كلّ الإرهاب الفاعل والمنتشر اليوم... خدمة لأمر لا تجهله... بل تتجاهله.

التقرير الأسبوعي لمراكز الأبحاث والدراسات الأميركية

حركة البابا فرنسيس وذكاء توظيف القوة

شكلت زيارة البابا للولايات المتحدة، ولقاءاته مع الرئيس أوباما وأعضاء الكونغرس، فرصة لمشاغلة الاهتمام الإعلامي الأميركي، بعيداً بعض الشيء عن الهموم اليومية والصراعات الحزبية المستدامة. سيتناول قسم التحليل آفاق الزيارة، ليس في بعدها السياسي وتأثيراتها المحدودة في الشارع الأميركي فحسب، بل للإضاءة على خلفية شخصية البابا المرتبكة، لدى البعض، وتبنّيه قضايا اجتماعية تشكل استمرارية لأسلافه في الماضي القريب.

جملة يتيمة عابرة صدرت عن البابا فرانسيس خلال زيارته الاميركية تلخص مجمل توجهاته كحارس الكرسي الرسولي، اولاً، وتوفر «أرضية الغفران» للنظام الدولي العالمي بقيادة الولايات المتحدة. اذ قال: «لا ينبغي علينا إصدار الأحكام استناداً الى المواقف السابقة أو القديمة». بعبارة أخرى، يرمي للمساواة بين الضحايا والمعتدين، وتغييب مسؤولية المراكز السياسية من القضايا العالمية الملحة وعلى رأسها تقليص هوة الفقر، وليس القضاء عليه كما ينبغي، والحدّ او القضاء على الأسلحة النووية، وإنهاء التدخلات والمغامرات العسكرية في الدول النامية.

بالغ الرئيس اوباما وإجراءات البروتوكول الخاصة باستقبال زعماء الدول في الإعداد لزيارة بابا الفاتيكان إلى واشنطن، وجنّد له طواقم حماية كبيرة العدد من مختلف الأجهزة الأمنية، المرئية وغيرها، بصورة نادرة وربما غير مسبوقة في واشنطن. وتابعت المؤسسات الإعلامية على اختلاف توجهاتها زيارة البابا ورافقته في ترحاله أمام محطات متعدّدة في المدينة. ولفتت النظر الى اللقاء الثنائي الخاص الذي جمع الرئيس أوباما بالبابا منفردين لقرابة ساعة من الزمن، دون ان تفصح عن مضمون اللقاء، وتركت عناوينه لتكهّنات السياسيين والإعلاميين على السواء.

ليس من العسير التعرّف على كنه ما دار بين الاثنين، خدمة لاولوياتهما الخاصة، تجسّد بعضها في خطاب البابا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، يوم الجمعة 25 أيلول. في هذا الصدد تنبغي الإشارة الى ثلاث قضايا: رسائل البابا المُراد إيصالها إلى العالم كافة؛ خلفيته السياسية والكنسية؛ وتوجهاته واصطفافه الى التيارات الأشدّ محافظة داخل تراتبية الفاتيكان الكهنوتية.

الإضاءة على حقيقة توجهاته بعيداً عن الترويج الإعلامي كشفتها بداية وثائق «ويكيليكس» عبر برقية رسمية من الممثل الأميركي لدى الفاتيكان عام 2005، يحث فيها صناع القرار في واشنطن على دعم صعود «الكاردينال الأرجنتيني (خورخي ماريو) بيرغوغليو الذي سيكون مناسباً انضمامه لمعسكر (الألماني) راتزينغر»، سلف البابا الحالي والذي تربع على المركز البابوي لفترة قصيرة واتخذ اسم «بنديكتوس السادس عشر». في عهد الاخير، تمّ رصد تشدد لهجة الفاتيكان ضد الاسلام تحديداً، وانتشار المظاهر العنصرية ضدّ المسلمين والأقليات العرقية والاثنية الأخرى في أجزاء كبيرة من الدول الاوروبية.

من نافل القول انّ «اختيار» البابا يتم من قبل مجلس «كرادلة» يضم 115 كاردينالاً. الضالعون في شؤون الفاتيكان والاصطفافات السياسية بنكهة لاهوتية ينوّهون الى صعود تيار المعارضين لإدخال إصلاحات بنيوية على الكنيسة الكاثوليكية، ابان ذروة الحرب الباردة، عرف بتيار «المنشقين»، ضمت دعائمه البابا البولندي آنذاك يوحنا بولس الثاني، ولاحقاً الالماني بنديكتوس السادس عشر، وراهناً الارجنتيني فرنسيس الاول.

إنصافاً لشخص البابا وتطور مواقفه، افصح مراراً بلغة الأسى عن تقاعسه في لعب دور أشدّ فعالية في مواجهة الفاشية الممثلة بالطغمة العسكرية في الأرجنتين. كما ينبغي الإشادة بمحورية دروه واتقانه للتقارب الاميركي مع جمهورية كوبا، بل تراجع المؤسسة الأميركية الحاكمة عن سياستها السابقة لعزل كوبا تمهيدا لإسقاطها والإطاحة بنظامها الاشتراكي.

القضايا الهامة للبابا فرانسيس

عوّلت الدوائر السياسية الاميركية كثيراً على الدور الرعوي للبابا فرنسيس، وامكانية استثمار المناخات الايجابية في الصراعات السياسية الداخلية، لا سيما في ظل احتدام المشهد السياسي بين الرئيس اوباما وخصومه الجمهوريين.

في شق الفاتيكان الداخلي الصرف، صعد البابا فرانسيس، قبل نحو عامين ونصف، الى سدة الكرسي الرسولي في ظل جملة استحقاقات «وفضائح جنسية» كانت تلاحق الكهنة والكنيسة الكاثوليكية بشكل عام، وإجماع الكثيرين على ضرورة إدخال إصلاحات بنيوية في الإدارة البابوية (كيوريا) وعلى الكنيسة ايضا، لا سيما تبني تعديلات بنيوية تحدّ من طغيان الجسم الاوروبي في المواقع الأساسية؛ وإحياء تبني الكنيسة لقضايا هامة لفقراء العالم وتعديل هوة الدخل الشاسعة بين الأغنياء والفقراء، والحفاظ على البيئة، وتداعيات ذلك على التركيبة الهيكلية للكنيسة والفاتيكان معاً.

خاطب البابا مجلسي الكونغرس، مشكلاً سابقة لإلقاء كلمة في جلسة مشتركة، ملبّياً بذلك دعوة تلقاها قبل عام من رئيس مجلس النواب، جون بينر. غلّب بعض ممثلي الحزب الجمهوري مواقعهم الفكرية والايديولوجية المعارضة لرسالة الفاتيكان في تبنّيهم لجملة قضايا اجتماعية. اذ أعلن ممثل ولاية اريزونا ذو الانتماء الكاثوليكي، بول غوسار، عن نيته مقاطعة خطاب البابا نظراً لاصطفاف الاخير الى جانب المطالبين بالحدّ من التغير المناخي الذي يرفضه الحزب الجمهوري. وأوضح غوسار «حينما يختار البابا حشد الدعم والخطاب كسياسي يساري، عليه التوقع ان يعامل كذلك».

المفارقة في ما يمثله غوسار الكاثوليكي انّ رعية الكنيسة يقرّون بعصمة البابا عن ارتكاب الأخطاء، والتي يفسّرها البعض بأنها احدى خصوصيات التجربة الأميركية في اعتناق الديانة المسيحية التي «تمزج صرامة الكاثوليكية بنزعة البروتستانت الاصلاحية»؛ والتي تصادف زيارة البابا ذكرى مرور خمسة قرون على انتصار الدولة الوطنية الأوروبية على سلطة الكنيسة، عام 1517، المعروفة بحركة مارتن لوثر متحدياً سلطة الكهنوت واعتماد نصوص الكتاب المقدّس كمرجع أوحد للنبوءة الإلهية.

يشار الى انّ الغالبية العظمى من الشعب الأميركي تدين بولائها للكنيسة البروتستانتية وتلوناتها المتعدّدة، تعززها رواية انشاء الدولة الأميركية وموجات الهجرات المتعدّدة من القارة الاوروبية «هرباً من القمع الكنسي والاتجاه نحو المستعمرات الأميركية». وامتداداً، رافقت نزعة الشك والريبة من الكنيسة الكاثوليكية مواطن وعي المهاجرين المستعمرين.

للدلالة على توزيع الخريطة الاجتماعية، اجرى معهد «بيو» استطلاعاً للرأي عام 2014 خلص به الى ان نسبة 71 في المئة من الاميركيين تعتبر نفسها تدين بالمسيحية، 46 في المئة منهم ينتمون إلى الكنيسة البروتستانتية، مقابل 21 في المئة إلى الكاثوليك.

لعلّ انتخاب الرئيس الأسبق جون كنيدي، الكاثوليكي الأوحد بين كافة الرؤساء الأميركيين، والمعارضة الواسعة التي واجهها لاحقاً خير دليل على انفصام السلطة الدينية؛ الأمر الذي حفز كنيدي التأكيد لعموم الشعب بأنه رئيس للبلاد لا يأخذ أوامره من الفاتيكان وسلطة البابا.

خصوصية البابا فرنسيس

الشعب الأميركي مولع بتصديق رواية الخصوصية في تجربته السياسية وقوة اقتصاده. وعليه جرى إرساء «ارث» سياسي منفتح للبابا فرنسيس مكّنه من تأييد الأغلبية من الليبراليين بخلاف سلفيّه اللذين سبقاه، يوحنا بولس وبنديكتوس السادس عشر، وقاعدة دعمهما من داخل التيارات المحافظة والمتطرفة في بعض الأحيان، والاستثمار بخطاب «القيم المسيحية» التي ينبغي التشبّث بها وصيانتها.

لعبت آلة الاخطبوط الإعلامية الأميركية، ولا تزال، دوراً محورياً في تسويق توجهات البابا فرنسيس «التقدمية»، في العرف الأميركي، نظراً إلى عزمه تحدّي التيارات اليمينية الأميركية في المسائل الاجتماعية، وعلى رأسها قضيتي الفقر والبيئة. على الطرف المقابل، تمسك سلفيه المذكورين بمناهضة الإجهاض «وخيارات الفرد الجنسية»، التي تبنّاها التيار الليبرالي بشكل عام.

التأييد الليبرالي الأميركي للبابا فرانسيس ليس مطلقاً وفي كلّ الأزمنة والأوقات، إذ تعمد الاصطفافات المختلفة الى حث البابا على تبنّي قضايا اجتماعية تقع في سلّم أولويات برامجها السياسية، وحفز النظام الكنسي السائد للاستجابة لتحدّيات العصر. لا سيما انّ البابا فرنسيس يتميّز باصطفافه الى جانب العامة والابتعاد عن النخب السياسية والاجتماعية، بخلاف أسلافه الآتين من صلب النظام والمؤسسة البابوية.

في ظلّ هذه الخلفية المستحدثة تثير تصريحات البابا جدلاً واسعاً لا سيما بين أقطاب معسكر الحرب والمحافظين والمتطرفين. ومن بين تصريحاته «الشائكة» إدانته لصنّاع الأسلحة «الذين يدّعون انتماءهم إلى المسيحية». وكذلك إدانته لمعسكر الحلفاء ابان الحرب الكونية الثانية لعدم التعرّض لخطوط السكك الحديدية للنظام النازي «ابان نقلها المدنيين لمعسكرات الاعتقال».

في معرض انتقاده لتوحّش النظام الرأسمالي ادان «عبادة المادة والأشياء الثمينة»، والتي فسّرها معارضوه لتأتي على شكل انّ النظام الرأسمالي «يمثل روث الشيطان». واردف البابا في محل آخر انّ النظام الاقتصادي الراهن «ليس بوسعه اعتماد وصفات علاجيه التي ليست الا سّم جديد، من شأنها زيادة أرباح الرأسماليين وتوسيع الهوة مع المعدمين». سلفه السابق البابا يوحنا بولس الثاني ايضاً «اضطر» إلى انتقاد النظام الاقتصادي «المشبع بعدم الانسانية»، واصدر رسالة بابوية شهيرة عام 1991 «يدين فيها كلا النظامين الرأسمالي والشيوعي»، مطالباً بإدخال اصلاحات بنيوية عليهما.

لعلّ إحدى أهمّ القضايا التي تميّز البابا فرانسيس موقفه من البيئة وضرورة وضع حدّ للانبعاث الحراري، وإصداره رسالة بابوية بهذا الشأن اعتبرت بمثابة «بياناً للبيئة تمزج بين التعاليم الكنسية التقليدية والقناعات المستحدثة المستندة الى الحقائق العلمية».

لا ينبغي تجاهل الروابط بين تلك القضايا مجتمعة وبرنامج الحزب الديمقراطي تحت قيادة الرئيس أوباما الذي يقف على نقيض خصمه الجمهوري في حماية البيئة.

المستور عليه في سجل البابا فرنسيس

من غير الجائز تجاهل عامل الظروف الدولية والاستراتيجيات الكونية للدول الغربية في بروز شخصيات معينة تتربع على قمة هرم الكرسي الرسولي في الفاتيكان.

في هذا الصدد، يذكر انّ البابا البولندي يوحنا بولس الثاني تم الإتيان به في قمة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي من جهة، وبين النظام الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، فضلاً عن كون اختياره أتى بالتزامن أيضاً مع تعثر الجهود الغربية للإطاحة بالنظام الاشتراكي في بولندا في عقد الثمانينيات وإخفاق تجربة «نقابة العمال البولنديين – سوليداريتي»، صيف 1980، في مرفأ غدانسك لبناء السفن.

استطاعت الحكومة البولونية احتواء الاحتجاجات والسيطرة على الاوضاع، مما اضطر صحيفة «نيويورك تايمز» في وقت متأخر إلى الإقرار بأنّ الإجراءات والتدابير التي اعتمدتها الحكومة البولونية لاستيعاب الحركة «أسفرت عن مقتل عدد ضئيل» من المدنيين، 12 كانون الأول 2011. ومضت بالقول انّ «سوليداريتي أخفقت في الإطاحة بالنظام الشيوعي بقواها الذاتية».

وعليه كان ينبغي على واشنطن ومؤيديها الانتظار وإعداد وسائل وقوى اخرى من جديد، وسرعان ما تمّ اختيار الكاردينال البولندي كارول جوزيف ووتيليا لتبوء منصب البابوية عام 1978، وأسندت إليه مهمة تقويض الشيوعية.

استراتيجية اميركا بالاتجاه والاستدارة نحو آسيا، ترتبت عليها اعادة توزيع الإمكانيات وتحديد الاولويات والتخلي عن بعضها، ولو موقتا. واستطاعت «مشاغلة» النظام الاشتراكي في فنزويلا برئاسة هوغو شافيز، والتعايش معه احياناً، لكنها ظلت عازمة على التخلص من تجربته والحيلولة دون امتدادها إلى مناطق اخرى من القارة الجنوبية. وبرزت ظواهر جديدة تتحدّى السيطرة والهيمنة الاميركية في البرازيل وبوليفيا ونيكاراغوا والاكوادور. والتفتت واشنطن إلى عامل الدين لاستغلاله أفضل استغلال في مواجهة أخرى مع التجارب الاشتراكية، ووقع الاختيار على شخصية من خارج المؤسسة البابوية «اوروبية الطابع». ونستطيع القول انّ البابا فرنسيس، ارجنتيني المنشأ، تم الإتيان به لتحقيق مهمة مشابهة لسلفه البولندي بغية الإطاحة والقضاء على التجارب الاستقلالية التي شهدتها القارة الاميركية الجنوبية، لا سيما أنها اسهمت مباشرة في فك العزلة عن جمهورية كوبا وعززت من سبل صمودها وتحدّيها لواشنطن.

لا يتسع المجال للإضاءة على جوانب هامة لشخصية «الكاردينال بيرغوغليو»، وميوله للتعاون مع الطغمة العسكرية الحاكمة في بلاده آنذاك، وارتباطاته بأجهزة الاستخبارات والأمن المحلية والاميركية.

ونكتفي بالإشارة الى المحطات التالية: رفّعه البابا يوحنا بولس الثاني الى رتبة كاردينال عام 2001؛ اتهم بالتواطؤ مع الطغمة العسكرية في اختطاف الكهنة المعارضين لسياسة الانقلاب العسكري، فرانسيسكو خاليكس واورلاندو يوريو – من فئة «لاهوت التحرير»، ابان شغله منصب الرئيس الاقليمي لجمعية يسوع الارجنتينية، واصدر أمراً للآباء اليسوعيين «اليساريين» ومناهضي الانقلاب «ترك العمل الرعوي». في عام 2005 قدم محامي حقوق الانسان ميريام بيرغمان دعوى جنائية ضدّ الكاردينال بيرغوغليو متهماً إياه بالتآمر في عملية اختطاف اثنين من الكهنة اليسوعيين عام 1976؛ بعد الإفراج عن الكاهن اورلاندو يوريو وجه اتهاماً مباشراً لبيرغوغليو لتسليمه فعلياً لفرق الموت برفقة ستة اشخاص آخرين (وكالة أ ب للانباء 13 آذار 2013).

الكاردينال بيرغوغليو استخدم حقه برفض المثول امام القضاء الارجنتيني مرتين، بموجب القانون المحلي، في المحكمة المفتوحة للتحقيق في جرائم الطغمة العسكرية. وعندما «اضطر» للإدلاء بشهادته عام 2010 جاءت إجاباته مراوغة وغير دقيقة وفق سجلات المحكمة. في مذكرة سرية للمجلس العسكري، أفرج عن مضمونها في آذار 2013، جاء فيها «اتهم الاب بيرغوغليو الكاهنين (خاليكس و يوريو) بإقامة اتصالات مع العصابات الثورية... وطالبهما النظام اليسوعي بحلّ الجماعة ورفضا الانصياع لتعليمات بيرغوغليو».

لعلّ الأهمّ الإشارة أيضاً الى دور الفاتيكان تحت حكم البابا يوحنا بولس الثاني القيام بدور محوري في دعم وتأييد الانقلاب العسكري في الارجنتين؛ واعتراف سفير الفاتيكان في الارجنتين، بيو لاغي، لاحقاً «بغض البصر» عن التعذيب والمجازر المرتكبة.

وربما احدى إهمّ الدلائل أتت على لسان سامانثا باور، الممثلة الدائمة للولايات المتحدة في الهيئة الدولية، قائلة: «لم يكن خورخي ماريو بيرغوغليو من المتفرّجين... كان متواطئاً في جرائم واسعة ضدّ الإنسانية».

ولعلّ افضل وصف يطلق على البابا فرنسيس الاول بأنه «بابا واشنطن في الفاتيكان»، لا سيما أنّ تعيينه في منصبه أتى بعد اسبوع من وفاة الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز.